

سلطان الصيام!

لا أحسب أحدا ينازعني فيما لرمضان من الإشراق والهيمنة والسلطان على النفوس، تراه في هذا الحنين الدائم إلى أجوائه، وتراه في الأمل الجميل الذي يسكن ذكرياته، وتراه في هذا الذي يشبه عشق العاشقين له ولنسماته وللريح الحانية العطرة التي تعانق النفوس والقلوب على أثره. وهو في كل هذا أشبه شيء بحبيبة يصح فيها وفي انجذاب القلب والنفس نحوها قول الشاعر: فمالك كلما ذكرت تذوب! قراءة سلطان شهر رمضان من خلال فحص عددٍ مهم من المداخل التي تسكنه، وتستطيع أن تكون دستور نهضة للأمة.



د. خالد فهمي

وهذه الورقة طامحة إلى وهي تحاول في المحاور التالية أن تستثمر عددا متواترا من المعلومات المرتبطة ارتباطا ظاهرا وعضويا بالشهر الكريم، مما يخفف من آثار المقاومة لها عند دعوة الناس إلى تفعيلها، وإدامة استحضارها، لأن الناس عمليا واقعون في تعاطيها، وممارستها من غير إكراه، ومن غير رفض أو نزوع نفس نحو مقاومتها، وهو الأمر الذي لا يتوافر لأية أمة في عمليات تحديثها؛ ذلك أن علماء الاجتماع يقررون مبدأ جامعا متمثلا في ضرورة وضع برامج وآليات لامتصاص المقاومة الشعبية والجماهيرية لعمليات التحديث، وهو الأمر الذي يتلاشى تماما في أوساط الأمة الإسلامية نظرا للتأثير الهائل الذي تمارسه أجواء شهر رمضان المعظم بما يحققه من أجواء التهيئة النفسية والاجتماعية نظرا لهذا الارتباط البديع بالأفكار الراقية المستمدة من الصيام، والدائرة حول القرآن الكريم مما ينزل بمخاطر المقاومة للنهضة ولأعباء التحديث إلى ما يشبه العدم.



وفيما يلي قراءة لعدد من مداخل النهضة الظاهرة والمستقرة في النظر العام لشهر رمضان الكريم كما يلي:

القرآن الكريم أصل أصول النهضة

وفي هذا السياق ينبغي أن يكون واضحا مستقرا أن أية نهضة مرجوة للأمة لا يسع الداعين إليها إلا أن يروموها ويتطلعوا إليها عبر بوابات القرآن الكريم.

ولعل بعض المستفاد من هذا النص على إنزال الذكر الحكيم في شهر رمضان، وفي ليلة مخصوصة منه هو استثمار هذا الربط المهم بين الشهر العظيم وبين تنزل القرآن الكريم ابتداء، وفي ذلك إشارة غير خافية إلى ضرورة انطلاق النهضة، وافتتاح أمرها من بوابة القرآن الكريم مهتدية بقوانينه وتشريعاته وآدابه وأخلاقه، ومن هنا فإن بالإمكان أن نقرر أن ارتباط نزول القرآن بهذا الشهر على ما جاء في آيات الذكر الحكيم في قوله تعالى ﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس﴾ (سورة البقرة: ١٨٥) يشير إلى الدعوة إلى نهضة الأمة ويلزمها تهيئة نفسية للشعوب الإسلامية على هدى من هذا التاريخ المضيء الذي استثمر فيه اعتكاف النبي ﷺ قبل بعثته لنزول الذكر الحكيم عليه.

إن أول خطوة يوحي بها ذلك الارتباط بين الشهر الكريم ونزول الذكر العزيز فيه هي ضرورة أن تتعلم الأمة أن تكون انطلاقة الدعوة إلى نهضتها من شهر رمضان استثمارا لأجواء التهيئة التي يحققها في الجماهير المسلمة على أحسن ما تكون التهيئة.

والالتفات إلى المبدأ القائل بأن القرآن الكريم هو أصل أصول النهضة أمر ثابت مستقر

لمسه غير عالم في المجالات المختلفة على ما ترى أثرا له في اعتباره أصل أصول النظرية الأخلاقية الإسلامية كما قرر د.محمد عبدالله دراز رحمه الله في كتابه الفذ «دستور الأخلاق في القرآن الكريم»، وعلى ما ترى أثرا له كذلك في النظرية التربوية الإسلامية على ما يقرره د.أحمد فؤاد الأهواني في كتابه المهم «التربية في الإسلام».

المعرفة قوة (رمضان شهر المعرفة)

مما تواتر وترجح في أدبيات علوم القرآن الكريم في مبحث «أول ما نزل من الذكر الحكيم» الإقرار بأن قوله تعالى ﴿اقرأ﴾ (سورة العلق:١) كان أول ما نزل، وهو ما يقود إلى إمكان الإقرار بأن شهر رمضان في ارتباطه العضوي والمحوري بافتتاح التنزيل بهذا الأمر الخطير وهو الأمر بالقراءة في مستوياتها المختلفة؛ قراءة المسطور (العلم) وقراءة المنظور (الكون) يرشح لضرورة افتتاح طريق النهضة، وتأسيسها على عماد أساسي متمثل في اعتبار القوة الحقيقية ماثلة في تحصيل المعرفة عبر طريقيها الأعليين:

أ – طريق العلم، وهو ما يمثل رمزا واضحا للتأليف والكتابة والتعليم والبحث العلمي الموصول بالله سبحانه، والمسترشد بهديه أوليس هو القائل سبحانه ﴿اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم﴾ (سورة العلق: ٣-٤).

ب- طريق النظر في الكون، وهو يمثل أمرا صريحا باكتشاف أسرار الخلق، والتكوين، ولإتقان هذا النوع من المعرفة العلمية التجريبية بوحي من قوله تعالى ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق﴾ (سورة العلق: ١-٢) وهما أمران جديران بالتأمل في سياق افتتاح التنزيل الكريم بهما من جانب، وفي افتتاح هذا التنزيل في هذا الشهر المكرم تعيينا بهما من جانب آخر.

رمضان مدخل تتجلى فيه علامة تنامي تغذية الوعي المجتمعي والفردي بأن القرآن هو الدستور والقانون الحاكم للأمة الإسلامية

ومما يدعم هذا النظر في هذا المحور ما تواتر من الأجر البالغ المترتب على الارتباط العظيم بالقرآن الكريم في هذا الشهر الكريم حتى صار علما مشهودا على العناية البالغة بتلاوة الذكر الحكيم، وتنامي هذه العناية في تنافس أفراد المجتمع الإسلامي فيما يسمى بالتنافس في الختمات، وهو ما يرجى تطويره إلى أبعد من ذلك لينتج تنافسا في تدبره وترجمته إلى سلوكيات وممارسات ومشاريع للنهضة في المجالات المختلفة.

وافتتاح نزول القرآن بهذا الأمر المبدع ﴿اقرأ﴾ متزامنا بالقرآن الكريم قاد إلى مسألة مهمة جدا قل الالتفات إليها في دراسات التعليم والإدراك وهي أن التهيئة النفسية، وتحقق التقوى المترتبة على الالتزام بآداب رمضان، وحرمته طريق من طرق تحقيق الإدراك، وهو ما قاد واحدا كالإمام الزمخشري في مقدمة تفسيره «الكشاف» أن يقرر أن ثمة طريقا مهما لتحصيل العلم لا سبيل إليه إلا بتحقيق التقوى وهو بعض المفهوم من قوله تعالى ﴿واتقوا الله ويعلمكم الله﴾ (البقرة:).



ان ارتباط الأمر الإلهي ﴿اقرأ﴾ بأجواء رمضان في ابتداء نزول الوحي يحمل دلالة مهمة يمكن استثمارها في أمر الله سبحانه وتعالى عبر هذا الارتباط يدعو الأمة أن تقيم نهضتها تأسيسا على المعرفة بتنوعها بما هي سبيل القوة التي يريدها الله سبحانه للأمة الإسلامية.

بناء الشخصية (رمضان شهر التقوى)

وفي هذا المحور أو المدخل تتداعى أمامنا بوحي من الارتباط بين الصيام فريضة الشهر الكريم وغاياته التي يرمي إلى تحقيقها وهي التقوى، وهي كلمة جامعة للاستقامة، وهي الغاية المنصوص عليها في قوله تعالى ﴿يأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون﴾ (سورة البقرة: ١٨٣).

والتقوى هنا كلمة لا يصح قصرها على الدلالة الروحية التى تعادل قمة الارتقاء الروحي والنفسي التهذيبي، وإنما ينبغي أن تترجم وتفسر لتكون معادلا ومكافئا لبناء الشخصية الإسلامية المتوازنة، بمعنى أن الصيام يسعى إلى بناء شخصية تقية بالمعنى الأخلاقي التهذيبي، كما يرمي إلى بناء شخصية قوية من الناحية البدنية ومن الناحية



الإرادية، أي أن رمضان يخلق بدنا قويا بما هو ثابت من آثار الصيام البدنية في تنقية البدن من السموم المتراكمة، وإراحة الأعضاء الداخلية من ضغوط الطعام من جانب، ويخلق نفسا قوية لها عزيمة وإرادة متعالية على المطالب المادية ولو كانت ضرورية فترة طويلة، وهو ما يصح تدعيمه بالنظر إلى أن رمضان بما فيه من فرضية الصيام كانت الخطوة الأولى قبل إقرار الأمر بالقتال في منظومة تراتب التشريعات في التاريخ التشريعي عند المسلمين.

معنى ذلك أن الله عز وجل جعل الصيام تمهيدا وإعدادا بدنيا ونفسيا للجهاد، وهو ما ترجمته الأمة على امتداد تاريخها في جعل رمضان والنظر إليه باعتباره شهر الانتصارات، فكان عماد النظر إليه من كل عام أنه شهر النصر المتولد عن الطاقة الهائلة ماديا ومعنويا التي يحققها الصيام، وبات الاحتفال بانتصارات الإسلام في رمضان واحدا من أكثر المفردات ظهورا في الإعلام الرمضاني من كل عام.

المدخل الاقتصادي (رمضان شهر التدبير والادخار)

إن الناظر إلى رمضان من منظور اقتصادي يلمس مجموعة من المعايير الحاكمة في أسس النهضة المرجوة من مدخل اقتصادي، ذلك أن اختزال القوة الإنفاقية بمقدار الثلث أو النصف أحيانا تبعا لبعض الأعراف والتقاليد التي تتناول ثلاث وجبات أو أربع في بعض الأقاليم يفتح الباب على مفردة مهمة وأثيرة في النظرية الاقتصادية تتعلق بتربية الأمة على ترشيد الإنفاق، وإذا كان المدخل الترشيدي هنا يتعلق بالضرورات فإن الدعوة إلى ترشيد الإنفاق في المجالات غير الضرورية تصبح مسألة وجيهة بعدما استطاع القرآن الكريم عبر منظومة رمضان أن يعود المسلمين في النظام اليومي لمدة شهر كامل على ترشيد الإنفاق في الحاجات الضرورية المتعلقة بالطعام والشراب.

وهو ما يؤازره ويدعمه فرضية نوع خاص من الزكاة التي هي زكاة الفطر التي شرعها الله سبحانه وأحد الجناحين اللذين تحققانها كامن في أنها طعمة (إطعام) للفقراء، وهو ما يوجه الأمة إلى الاستثمار في الصناعات الضرورية بما هي العماد الحقيقي للاقتصاديات الوطنية، وصناعة الغذاء من أولى الصناعات فى هذا الباب الخطير المهم المؤثر فى إدارة الدولة، وعلاقاتها الدولية.

ومع ذلك تتجلى ما تسميه مجموعة من النصوص المشرقة من أحاديث المصطفى ﷺ باسم البركة المقترنة بنسك هذا الشهر الفضيل، وهو ما يظهر في قول النبي ﷺ المتفق عليه: «تسحروا فإن في السحور بركة» وفي الحديث الحسن الذي يقول فيه المصطفى ﷺ: «إن الله جعل البركة في السحور».

وهذه البركة أثر من الممكن استثماره واستدامته في ارتباط المسلمين بطاعة الله سبحانه في هذا الشهر الكريم.

المدخل الاجتماعي (رمضان شهر الرحمة)

من المبادئ المقررة في النظرية التربوية الإسلامية على ما يقرر أحمد فؤاد الأهواني تأسيسا على اثنين من أشهر علماء التربية المسلمين القدماء وهما القابس ت ٤٠٣هـ، وسحنون ٢٥٦هـ أن الطاعة من صلاة وصيام تحقق لصاحبها نوع كرامة إنسانية، وهو الأمر المشاهد الملحوظ عيانا في الأوساط المجتمعية الإسلامية، بحيدة نستطيع معها أن نقرر أن واحدا من علامات القبول والتقدير والارتقاء الاجتماعي في الأوساط الإسلامية متمثل في ارتباط هذه العلامات بالأشخاص المعلوم عنهم التدين والصيام في مقدمة العبادات التي تنتج لأصحابها هذا القبول المجتمعي.

ومن ثم فبالإمكان أن يكون شهر رمضان عبر فرضية الصيام مدخلا اجتماعيا يسهم في تحقيق الكرامة الإنسانية لأفراد المجتمع مدعوما بعدد من الأسس الاجتماعية الأخرى التي تصنع المجتمع بخصائص النهضة، وهذا الشهر أعلى نموذج تتجلى فيه سمات التكافل (إطعام- زكاة فطر...) والتراحم، والتنظيم.

وعلى الرغم من ضعف الحديث الذي أورده ابن خزيمة في صحيحه تحت ترجمة (عنوان) «باب فضائل شهر رمضان» إن صح الخبر

١٩١/٣ حديث رقم ١٨٨٧: «أيها الناس قد أظلكم شهر عظيم، شهر مبارك...من فطر فيه صائما كان مغفرة لذنوبه، وعتق رقبته من النار، وكان له مثل أجره من غير أن ينتقص من أجره شيء» فإنه مدخل مهم من الناحية الاجتماعية لصناعة نهضة عبر بوابة شهر رمضان، قادر على دعم عناصر التماسك المجتمعي، ودعم ركن مهم سمي في الأدبيات الاجتماعية المعاصرة باسم السلام الاجتماعي.

المدخل السياسي (رمضان شهر النصر)

وفي شهر رمضان ونظرا لارتباطه تاريخيا بأعلى نصر في التاريخ الإسلامي- وهو ما تحقق بفضل الله تعالى للإسلام في أول مواجهة مع الشرك في غزوة بدر الكبرى- تجلت علامة مهمة جعلت منه شهر النصر.

وهذا المدخل السياسي كان قراءة رمضان من بوابة كونه أعلى نموذج لتحقيق الوحدة بين أفراده، ماديا في توحيد مواقيت إفطارهم، وفي اجتماعهم جميعا مدة طويلة هي مدة النهار وهم صائمون تجمعهم حالة نفسية واحدة، وفي افتتاح صومهم تبعا لتوقيت واحد وهو المتمثل في وظائف الرؤية (رؤية الهلال) من الناحية السياسية.

ورمضان من جهة أخرى مدخل تتجلى فيه علامة تنامي تغذية الوعي المجتمعي والفردي بأن القرآن هو الدستور والقانون الحاكم للأمة الإسلامية بالمعنى التشريعي والقانوني، وهو بعض نتائج الارتباط بالذكر الحكيم في هذا الشهر من جانب الأفراد، وهو ما ينبغي دعمه في دروس التراويح للإسراع بمشروع النهضة المنبثق من الكتاب الكريم.

كما يمثل رمضان من هذا المنظور وجها مهما يقدره علماء الاجتماع السياسي فيما يسمى بمجدد الأمل، وهو الذي يتحقق في أعلى تجلياته وصوره في هذا الشهر الكريم،



رمضان أعلى توقيت يمكن التخطيط انطلاقاً منه.. ليكون مفتتحاً بديعاً لنهضة المسلمين في هذا العصر

وهو الأمر الذي يتبدى بوضوح في الآمال التي ترتبط بها الأمة عبر أفرادها فيما ترجوه من رحمة وغفران وعتق من النيران وفرصة عاجلة متمثلة في انتظار العيد الذي هو ملمح مهم أيضا يدعم أجواء الوحدة الاجتماعية والسياسية، وهو ما التفت إليه السياسة المعاصرة في النظر إلى هذه الأيام باعتبارها دعامات تقوي الشعور الوطني، وتقوي روافد الشخصية القومية.

وهذا كله أمر لازم للنهضة الإسلامية المرجوة، وهو الأمر الذي يمكن استثماره في دعم مخططات التنمية التي قد يتولد عنها أزمات على المستوى الشعبي مما يستلزم استثمار كون شهر رمضان شهر الصبر لتخطي الأزمات المتوقعة للسير أو التحول إلى طريق النهضة.

المدخل الحضاري

ويأتي هذا المدخل الأخير من مداخل النهضة المستمرة والمستنبطة من جانب تأسيسا على إعادة قراءة شهر رمضان بما فيه من فضائل وخصائص يحمل في طياته إمكان تأسيس النهضة الإسلامية عبر مدخل حضاري يرعى اتصال الأمة حضاريا وتاريخيا لتستشعر الأمة عبر أفرادها أن لها تاريخا عريقا في التقدم والتحضر والارتباط بالسماء وهو بعض ما يمكن فهمه من قوله تعالى ﴿كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم﴾ في هذا الجزء الأخير من الآية الكريمة (كما كتب على الذين من قبلكم) مدخل حضاري يرعى أننا امتداد لتاريخ عريق مقبل على الله تعالى.

وهو الأمر الذي ييسر أن نفتش في طريق إقامة النهضة على ما سكن في تاريخ هذه الأمة القديم على عناصر يمكن التقاطها لدعم مشروعات النهضة الإسلامية المعاصرة؛ ذلك أننا أمة ليست يتيمة أو معزولة أو لقيطة.

من مجموع هذه المداخل المرتبطة بهذا الشهر الفضيل نستطيع أن نقرر أن شهر رمضان هو أعلى توقيت يمكن التخطيط انطلاقا منه زمنا، ومما يتجلى فيه من علامات ومداخل وتهيئة لكي يكون مفتتحا بديعا لنهضة المسلمين في هذا العصر الذي نحيا فيه.

فباسم رمضان وباستلهام فريضته، وبالاستظلال بأجوائه تقدم المسلمون قديما، وباسمه وباسم فريضته الكبرى وباسم الأجواء البديعة التي تشيعها فينا يمكننا أن نستعيد تقدمنا من جديد.